إنسانية الإسلام في الحروب

«١»

حروبنا.. إنسانية للدفاع عن الدعوة

■ لم تكن حروب الإسلام لإقامة إمبراطوريات أو لفرض الإسلام على الناس، بل كانت حروباً فرضها الأعداء على المسلمين، فقد عذبوهم وأخرجوهم من ديارهم، وتربصوا بهم،.. ومع ذلك عفا المسلمون عنهم.!!

وكان المسلمون يفرقون بين حروب الدعوة وحروب الدولة، ويريدون أن حروب الدولة قد لا تكون في مصلحة الإسلام حتى مع الانتصار، فالعبرة بمصلحة الدعوة للإسلام.

■ فعندما رأى عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ) أن الفتوحات أصبحت معارك (دولة) على حساب (الدعوة) أوقفها، لأن الدعوة هي الهدف، وبدون الدعوة تصبح الحروب وسيلة تدمير لجميع الأطراف!!.

لقد شاع لدى كثير من المؤرخين أن عمر بن عبد العزيز أوقف الجهاد وأمر الجند كله بالقفول بحجة أن الجهاد تحول إلى تجارة، بينما النبي (رحمة مهداة) وأنه بعث (هادياً) لا جابياً، وكان من نتائج ذلك، تأخر فتح القسطنطينية كما كان من نتائجه توقف تقدم الإسلام في أواسط آسيا لأكثر من نصف قرن.

ومع ذلك فإن المؤرخين لم يعيبوا على عمر بن عبد العزيز هذا السلوك، ثقة منهم في أنه كان يعمل لمصلحة الدعوة، وقد دخل الناس الدين في عهده أفواجاً على الرغم من هذا الموقف الذي من شأنه

التقليل من هيبة الدولة ومكانتها، وعلى الرغم من مآخذ بعض المؤرخين، لكن الدعاة لم يستسلموا لمفهوم الدولة عن الحروب، بل قاوموه واستخدموا التجربة التاريخية للنَّبي والخلفاء الراشدين لدعم وجهة نظرهم في الدعوة، وفي أن الجهاد بأشكاله المختلفة مستمر إلي يوم القيامة لحساب الدعوة وحدها.

■ وعندما فشل الفقهاء والدعاة وانتصر مفهوم (حروب الدولة) بعد عمر بن عبد العزيز (١٠١-١٣٢هـ) كان لا بد أن تترنح الدولة الأموية آيلة للسقوط!!.

ومثل ذلك وقع في الأندلس، فلقد انتصر المنصور بن أبي عامر (٣٦٦-٣٩٢هـ) في سبع وخمسين غزوة ضد نصارى الشمال الإسباني، ولم يهزم في معركة قط، وقد جلب الخير الكثير لشعبه، لدرجة أنه سمي (الجلاّب)، لكن ما إن مات المنصور حتى ترنحت الأندلس داخلة في عصر من أسوأ عصور الأندلس، وهو عصر الفتنة (٣٩٩-٤٢٢هـ).

وكان السبب الرئيسي أن هذه الحروب كانت حروب دولة، ولم تكن معارك اقتضتها مسؤولية الدعوة.

وهكذا كان الفقهاء المسلمون والدعاة إلى الله واعين بأهداف الحروب الإسلامية، وبأنها ينبغي أن تكون للدفاع عن الدعوة حتى يتبين الرشد من الغي دون إكراه في الدين، ولا يجوز أن تسمى حروباً إسلامية، وهي لتحقيق مجد سلطان من السلاطين، أو دولة من الدول، أو لجلب الغنائم والأموال، إن مثل هذه الحروب لا تحسب على الإسلام، وهي ليست خالصة لوجه الله بل هي للرياء والسمعة!!.

هذا في الوقت الذي جاءت كل الحروب الأوروبية والأمريكية لفرض السيطرة والهيمنة السياسة والاقتصادية، وحرمان الشعوب من ثرواتها ومن عقائدها وثوابتها، بعيدة عن كل أهداف نبيلة أو غايات دينية أو إنسانية، والدين من حروبهم براء.

«٢»

الإنسانية والرحمة والعفو في الحروب

■ من المعترف به من كل المؤرخين مسلمهم وغير مسلمهم أن صلاح الدين الأيوبي رضي الله عنه ورحمه رحمةً واسعة قَدَّم صفحة رائعة من التسامح والكرم مع غير المسلمين، على العكس من شنائعهم المعروفة التي قاموا بها في الحروب الصليبية عندما استولوا على أنطاكية (وقتلوا عشرة آلاف)، وعندما استولوا على بيت المقدس (وقتلوا سبعين ألفاً على الأقل).. ومع هذه الصفحة الرائعة من الكرم والتسامح مع الأعداء ركل القائد الإنجليزي (اللنبي) قبر صلاح الدين بقدمه عندما دخل دمشق، وقال: «لقد عدنا يا صلاح الدين!!».

■ وأظن أن كل عاقل من حقه أن يسأل: ماذا فعل صلاح الدين بهذا الجزاء؟.

أم أن الأوروبيين يعرّون التسامح وفكّ الأسرى وعدم مقابلة الموت بالموت والعُنف نوعاً من الضعف والحوز؟!!.

ومع التاريخ الدموي الفظيع للحضارة الأوروبية ضد الإنسانية والمسلمين بخاصة دأبت هذه الحضارة الظالمة على تشويه دين المسلمين وحضارتهم وترويج أنهم أهل السيف وأن حضارتهم حضارة العنف!! (والحق أنهم أصحاب الحق الوحيدون في الظلم والعنف عبر تاريخهم كله!!).

■ لقد كان صلاح الدين الأيوبي (وآل زنكي من قبله) ثم الأسرة الأيوبية بعد صلاح الدين -هم- بحق- أبطال الدفاع عن الإسلام وإنقاذ المشرق الإسلامي من الغارة الصليبية.. ولهذا فهم مكروهون مهما قَدَّمُوا من إنسانيات وأخلاقيات ومن صور الكرم والتسامح البالغة التي تزهو بها صفحات التاريخ الإنساني!!.

■ ولقد قدَّم صلاح الدين -بحق- مع نفسه وسلوكه الخاص، ومع جنده ومن حوله من المسلمين، ومع أعدائه، صفحة أخلاقية راقية تتجلى فيها قيم الإسلام السامية الرفيعة.. لقد نسي صلاح الدين تماماً أموره الخاصة، بل وعواطفه نحو الأمور الشخصية، وآثر ما عند الله ومصلحة الأمة على كل شيء، لدرجة أن ابن أخ له وكان عزيزاً عليه، مات، فأخفى صلاح الدين الخبر حتى لا يؤثر على مواجهة المسلمين للأعداء.. ومن ثم أظهر الكتاب ووقف عليه، وبكى بكاءً شديداً حتى أبكانا من غير أن نعلم السبب، ثم قال صلاح الدين رحمه الله والعَبْرة تخنقه: توفي تقي الدين عمر ابن أخي: فاشتد بكاؤه وبكاء الجماعة، (كما يقول بهاء الدين بن شداد).

وكان هذا الإعلان في مرحلة متقدمة من المواجهة.. وقد بقيت بعض الأعباء.. يقول ابن شداد: «ثم عدت إلى نفسي (أي ابن شداد) فقلت: استغفروا الله تعالى من هذه الحالة، انظروا: أين أنتم، وفيم أنتم، وأعرضوا عما سواه»، «وهكذا ينصح ابن شداد السلطان ومن معه حتى لا تؤثر عليهم العواطف.. وهنا يوافق فوراً صلاح الدين ويقول

مستدركاً: نعم، أستغفر الله، وأخذ يكررها، ثم قال صلاح الدين: لا يعلم بهذا أحد!! (حتى لا ترتبك أمور المواجهة)!!.

وطلب شيئاً من (الماورد) فَغَسَل عينيه، ثم طلب الطعام، وحضر الناس، ولم يعلم ذلك أحد حتى عاد العدوُّ إلى يافا، وُعدنا نحن إلى النطرون، وهو مقرّ ثقلنا، أي مقر قاعدة الانطلاق كما يقول ابن شداد المؤرخ».

■ ولو تصفَّحنا تاريخ صلاح الدين في مواجهة الحروب الصليبية، منذ وطئت أقدامه أرض مصر، وخلال توحيده للشام ومصر - لوجدنا أخلاقاً سامية، وإنسانية ورحمة مع حكمةٍ وعقل وذكاء وغيرة على دين الله.

لقد كان كثير العفو عن المسيئين إذا ظهر له صدقهم في الندم، وكان كثير العطف على الضعفاء، سواء كانوا مسلمين أم غير مسلمين، مكرماً لكبار أعدائه إذا كانوا محترمين في عداوتهم، عير منحطّين في تعاملهم مع المسلمين أثناء الحروب (مثل أرباط الذي كان ينوي هدم الكعبة ويسبّ الرسول علناً أمام المسلمين).. وكان يستجيب لكل استغاثة، وله في ذلك قصص معروفة مشهورة، ومن أشهرها ما يروى من أنه كان للمسلمين سرايا تدخل إلى العدو فتأسر منه كل شيء وجدته، وفي ذات ليلة: أسرت سريةٌ طفلاً رضيعاً له ثلاثة أشهر، وسارت به حتى أتت إلى خيمة السلطان رحمه الله وعرضَتْه عليه، (وكان أفراد هذه السرايا يعرضون على السلطان كلَّ ما يأخذونه أو يأسرونه، فيثيبهم ويعطيهم

ما أخذوه) لكن لما افتقدت الطفل أمُّه باتت مستغيثةً بالويل والثبور في طول تلك الليلة، حتى وصل خبرها إلى ملوكهم، فقالوا لها: «إن صلاح الدين رحيم القلب، وقد أذنا لك في الخروج إليه، فاخْرجي واطلبيه منه، فإنه يردّه عليك» فخرجت تستغيث ببعض قادة المسلمين، فأخبرتهم بواقعتها بترجمانٍ كان يترجم عنها، فأطلقوها، وأنفذوها إلى السلطان، فأتَتْه، وهو راكب، فبكَتْ بكاءً شديداً، ومرغت وجهها في التراب، فسأل عن شكواها، فأخبروه، فَرَقَّ لها، ودمعت عيناه، وأمر بإحضار الرضيع، فمضوا فوجدوه قد بيع في السوق، فأمر بدفع ثمنه إلى المشتري وأخذه منه، ولم يزل واقفاً رحمه الله حتى أحضروا الطفل، وسُلِّم إليها، فأخذتْه وبكت بكاءً شديداً وضمَّته إلى صدرها، والناس ينظرون إليها ويبكون، فأرضعتْه ساعة، ثم أمر بها فحُمِلتَ على فرس، وأُلحِقَتْ بعكسر الأعداء مع طفلها».

ويعلق ابن شداد على هذا الموقف قائلاً:

«فانظر إلى هذه الرحمة الشاملة لجنس البشر، اللهمّ إنك خَلَقْتَه رحيماً فارحمه رحمةً واسعة من عندك ياذا الجلال والإكرام، وانظر -كذلك- إلى شهادة الأعداء له بالرقة والكرم والرأفة والرحمة عندما وجهوا المرأة للذهاب إلى صلاح الدين.. وكان صلاح الدين مع المرأة كما وصفوا.. وهكذا كان صلاح الدين دائماً.. آية من آيات الله في التسامح والعفو والرحمة، مع الشجاعة والزهد والقوة.. فرحمه الله رحمة واسعة.. والفضل ما شهدت به الأعداء.

«٣»

الوفاء بالعهد مع الأعداء

■ نحن نعاهد الناس ونلتزم بأمر الله الذي يقول لنا ولرسوله عليه السلام: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾.

وقد أثبت تاريخنا هذه الحقيقة، بينما جبلت القوى المعادية للإسلام على خيانة العقود، واعتبارها مرحلية، وما تفعله قوى العلمانية مع العرب الذين استعانت بهم ضد الشيوعية ثم غدرت بهم دليل على ذلك، كما أن ما وقع في محاكم التفتيش في الأندلس من أقوى الأدلة أيضاً.

لقد أخضعت الجيوش الإسلامية أقواماً مختلفة منحها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم الأمان، وأبقى على ملكيتها لخيراتها لقاء تعويض مادي أو مالي متفاوت في أهميته، وذلك مثل قبيلة خيبر، وسكان البحرين من المجوس واليهود الذين اعتنق أميرهم الإسلام، وسكان شمالي الجزيرة العربية من المسيحيين في دومة وأيلة، ومن اليهود في أبروح ومكوع.. وغير ذلك.

كما عقد النبي عليه السلام مع رهبان (ديرسانت كاتريت) في سياء ميثاقاً يمنحهم بموجبه حرية كبيرة.

وأيضاً كما يقول (بوازار) عقد النبي محمد صلى الله عليه وسلم اتفاقاً مع مسيحيي نجران اعتبره فقهاء المسلمين نموذجاً للتنظيمات الصالحة للتطبيق على الخاضعين للإسلام.

لقد أصدر النبي لدى زيارة أحد الوفود قراراً يتعهد فيه بحماية سكان مدينتهم وجوارها، وتأمينهم على نفوسهم وممتلكاتهم وضمان حريتهم في التمسك بعقيدتهم وعبادتهم.

وقد شملت الحماية والضمان جميع السكان، في حين ظلت مسؤولية الانتهاكات مسؤولية فردية يؤاخذ عليها المجرم وحده، فلا يؤخذ عليها أي معاهد بجريرة آخر، فضلا عن أن يؤخذ قوم بجريرة أفراد مغرضين كما يفعل النظام العالمي الجديد.

وكانت هناك أحكام خاصة تمنع تدخل المسلمين في النظام الكهنوتي المسيحي، وتحظر الإساءة إلى أهل الذمة وتحظر كل شكل من أشكال الاضطهاد.

وهذا الاعتراف لا نقوله نحن وإنما يقوله مارسيل بوازار في كتابه (إنسانيات الإسلام ص ١٩٢).

«ويؤكد التاريخ أن المسلمين لم ينكثوا عهداً، ولم يخلُّوا بالتزام التزموه إلا بعد أن غدر أعداؤهم»..

ولم يمكروا بالناس ليستعمروهم ويستولوا على خيراتهم تحت شعارات كذوب.. وكيف يقع هذا من مسلم والإسلام يرفض اجتماع الإيمان مع الكذب، وهو يعلم المسلمين أيضاً بقوله ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾..!! وفي المقابل: كم كذب أعداؤنا؟.

وكم مكر آعداؤنا، وكم اخترعوا من طرائق وخرائط للسلام، وكلها مكر وأوهام.. بينما كنا نحن دائماً ملتزمين بعهودنا، مطبقين لشرع ربنا الذي يأمرنا في كتابه الكريم بقوله: ﴿ **وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً** ﴾..

هذه عهودنا.. دين وحضارة وقيم نبيلة..

وتلك عهودهم مكر وخداع وأهداف تبرر كل وسيلة!!.

«٤»

الشعوب لا تدفع الثمن

تقوم علاقة الإسلام بالشعوب على أصالة السلام والعدل والتراحم..!! والمسؤولية في الإسلام وكذلك العقوبة فرديتان لا يجوز تعميمها على الأبرياء، وبهذا الميزان تعامل الإسلام مع العالم كله.

لقد أثار دهشة الرحالة الأوروبيين ولا سيما في القرن الثامن عشر أن الأجنبي في مفهوم المسلمين هو (غير المؤمن بالإسلام)، فكأن كل مسلم هو مواطن في كل بلد مسلم!!.

ومع ذلك فإن هذا الأجنبي -أي غير المسلم- لا يمكن اعتباره عدواً حتى ولو كان من دار حرب؛ لأن الحرب تكون حسب المفهوم الإسلامي بين الحكومات لا بين الشعوب.

وحتى في زمن الحرب الناشطة بين الإسلام والإقليم الذي رعاياه هذا الأجنبي، فإنَّ بوسع هذا الأجنبي دخول دار الإسلام والتنقل فيها والإقامة مؤقتاً هو وأسرته، دون أن يتعرض للخطر أو الإزعاج.

بل إن الحماية الممنوحة له تجعله يفيد من الاعتراف بشخصيته، وتكفل له سلامة شخصه وأمواله (بوازار إنسانية الإسلام ص ٢٣٥)..

وهكذا يظهر جلياً ما يحاول أعداء الإسلام إخفاؤه فيما يتصل بنظرة الإسلام للشعوب، وللتفاعل الحضاري السلمي، ولتبادل المصالح، وكيف أن المواطنين من الدول المحاربة الذين يطلبون العلم

أو التجارة تكفل لهم الدولة الإسلامية الأمان واحترام حقوقهم الإنسانية، حتى في هذه الحالة الشاذة.. حالة وجود حرب بين دولتهم والدول المسلمة!!.

ونأخذ من هذا بعداً آخراً خطيراً.. هو: أن الإسلام لا يجعل الشعوب تدفع ثمن تصرفات قياداتها أو حكوماتها..

فالشعوب صانعة الحضارة تظل بمنأى عن هذه الأوضاع الاستثنائية، شريطة أن يكون هؤلاء الداخلون إلى البلد المسلم بمنأى عن الأعمال العسكرية أو السياسية!!.

هذا هو موقف الإسلام ديناً وحضارة.

فإذا تذكرنا هذا ثم قارنا بين هذا السلوك الحضاري وما يقع الآن من (حضارة العولمة) وكيف تفقد ملايين كثيرة حقوقها، مع أنها تحمل جنسيات هذه الدول الاستعمارية، بل كيف تدفع أوطان كاملة ثمن أخطاء بعض الأفراد المأجورين أو المعتوهين الذين يستخدمون العنف ضد بعض الأوطان.. أو الأشخاص!!».

إن حكمة الإسلام أذكى من كل الشعارات، وإن (فردية) المسؤولية في الإسلام ميزان من أروع ما عرفت البشرية.. وهذا ما تفتقده حضارة الظلام والشعارات المكذوبة التي تخطط لإبادة الإنسانية متذرعة بأخطاء فردية تصطنعها إذا لم تجدها.. وتلك أحط صورة عرفها مستنقع الحقد البشري الذي سماه القرآن (أسفل سافلين).

«٥»

دار العهد والأمان والحياد

يزعم بعضهم أنه لا يوجد لدى المسلمين إلا دار حرب ودار إسلام، وهي أكذوبة مثل الأساطير المعاصرة الشائعة عن المسلمين وعن دينهم.

فالحق أن (دار الحياد) أو (دار الأمان) أو (دار العهد) تشمل المساحة الأكبر من علاقات المسلمين.. إنها العالم الأكبر..

وهناك ثلاثة أمثلة عن عهد الأمان أو دار العهد، أو حسب تسمية مارسيل بوازاد (دار الحياد) المعترف به، وهي مما أقره نظام العلاقات الدولية في الإسلام بعيداً عن حصر بعضهم لهذا النظام في علاقته الخارجية في إطاريّ (دار السلام) و(دار الحرب). فقط.. فهو عهد الأمان أو دار الحياد وهو الضلع الثالث الأساسي في نظرة ديننا وحضارتنا للعالم.

ومازال التاريخ يحفظ موقف المسلمين من الحبشة (أثيوبيا حالياً) التي لم تظهر منها في قرون المجد الإسلامي ميول عدوانية.. وكذلك كان الحال بالنسبة لأهل النوبة في جنوب مصر الذين عقدوا معاهدة التزموا بها التزاماً كاملاً.. والأمر نفسه في جزيرة قبرص.

وكان من نتيجة ذلك أن أنزلت الأمة الإسلامية الحبشة منزلة وجنبتها أي صراع؛ لأنها وقفت من جهة منذ الأيام الأولى في وجه اضطهاد المؤمنين بتقديمها الملجأ للمسلمين المهاجرين من مكة، ولأن ملكها اعترف من جهة ثانية بالشريعة الإلهية وبنبوة محمد وإن لم يفرض ذلك على شعبه!!.

وأما النوبة فقد التزمت بالمعاهدة -كما أشرنا- وكانت معاهدة تجارية وحضارية، وأما جزيرة قبرص فلم تكن منتسبة إلى أي من (الدارين)، وإنما كانت خاضعة لتبعية مزدوجة تجاه بيزنطة والإسلام في وقت واحد، فهي دار حياد!!.

وهذه الأمثلة الثلاثة (كما يؤكد مارسيل بوازار) توضح وتدعم النظرية القائلة: بأن ادعاء أن الإسلام يقسم العالم إلى قطبين فقط: إما دار حرب، وإما دار إسلام -ادعاء كاذب، وهو جائر وفاسد، وكذلك فإن العداوة التي تستتبع هذا التقسيم لا تستند إلى تجربة حقيقية أو دليل موضوعي.

والحق أن الحضارة (الأورو - الأمريكية) هي التي تقسم العالم إلى دار حرب ودار سلام، وكل من ليس معها فهو دار حرب، فإما أن تكون معها أو أنت بالضرورة ضدها.. والأحداث الأخيرة وتداعياتها أكدت هذا.. ويؤكد هذا أيضاً نظرية (الصدام الحضاري) -الإجباري في رأيهم - والتي ينبني عليها أن يكون هناك (آخر) (عدو) لضمان حيويتهم وتقدمهم عن طريق الصراع معهم وليجربوا فيه نتائج تطوير أسلحتهم!!.

ومع ذلك يصفون غيرهم بما فيهم، ويشوهون دينه وحضارته!!.

وبأعلى صوت نقول: إننا لا نحتاج إلى عدو، ولا نرفض أحداً رفضاً عنصرياً أو دينياً ولا نؤمن بالصدام الحضاري.. بل نتمنى أن يكون العالم كله خالياً من دار الحرب وأن يكون فقط دار إسلام.. ودار عهد، وكلاهما يشمله قول الله تعالى لنبيه عليه السلام:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾.. كل العالمين.

«٦»

لا قتل للأطفال في الحروب

استغل الأرمن من مواطني الدولة العثمانية في الحربين العالميتين الظروف السيئة للدولة العثمانية شعباً وحكومة، ولم يقدروا للمواطنة حقها، كما أنهم لم يذكروا أنهم يعيشون في هذه الدولة منذ قرون حياة آمنة مطمئنة.. وبتأثير من القوى الأجنبية أعلنوا التمرد - ليس على الحكومة فحسب - بل على الشعب المسلم البرئ، فهاجموا القرى وقتلوا الأطفال والنساء والشيوخ.. وعبثاً حاولت الدولة العثمانية كبح جماحهم، إلا أن القوى الأجنبية كانت تغذي فيهم روح الحقد والخيانة لحقوق الوطن، وتزكي فيهم الروح الصليبية.. فاستمروا في إغارتهم على القرى المجاورة لهم والمتاخمة للحدود الروسية..!!.

فاضطرت الدولة العثمانية للسماح للمسلمين بالدفاع عن أنفسهم ومعاملة الأرمن بالمثل.

فانتشرت بين الأتراك المسلمين والأمن مذابح جماعية أبيدت فيها قرى بأكملها.. وكان الأطفال والنساء والشيوخ من جملة وقود هذه المعارك!!.

وقد وقف الداعية التركي المسلم الكبير الشيخ سعيد النورسي (بديع الزمان) ضد هذا الأسلوب. وحذر المسلمين من مغبة المعاملة بالمثل، كما منعهم من قتل الأطفال حتى ولو قتل الأرمن أطفالهم لأن؛ هذا ليس من أخلاق الإسلام الحربية.. فالأطفال الأبرياء لا ذنب لهم!!.

وقد ذكر بديع الزمان سعيد النورسي المسلمين بما قاله الرسول عليه الصلاة والسلام من وصايا للجيوش، وبما قال أبو بكر، وغيرهما.

فامتثل المسلمون الأتراك لأوامر الإسلام وكفوا عن قتل أطفال الأرمن عندما يهاجمون قراهم!!.

ويقال: إن بعض الأرمن تأثروا بهذا السلوك الإنساني الإسلامي.. وحاولوا كبح جماح قومهم..

لكن الحقد الصليبي كان أقوى.. فقتل كثير من أطفال المسلمين.. ولم يندم المسلمون على ما فعلوه.. لأنهم كانوا ينفذون تعاليم رسول الإسلام.. عليه الصلاة والسلام..

«٧»

حتَّى في التآمر على قتل عمر.. تعاملنا بإنسانية!!

تكاد الدراسات التاريخية الحديثة تَتَّفق على أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قُتل نتيجة مؤامرة ذات تدبير محكم، فليس (فيروز أبو لؤلؤة المجوسي) إلا الأداة المُنَفِّذة، بينما كان الهرمزان الذي كان حاكماً فارسياً على الأهواز. وجُفينة أحد نصارى الأنبار هما العقّلين المدبرين والمخططين.. ويروى أن عبدالرحمن بن عوف حين رأى السّكين التي قتل بها عمر قال: رأيت هذه أمس مع الهرمزان وجُفينةالنصراني، فسألتهما ما تصنعان بهذه السكين؟ فقالا: نقطع بها اللحم، فإنا لا نمس اللحم، كما روى عبد الرحمن بن أبي بكر أنه رأى أبا لؤلؤة والهرمزان وجفينة قبل مقتل عمر يتحدثون خفية، فلما فاجأهم قاموا وقوفاً فسقط منهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه، وكان هذا الخنجر هو الذي حمله أبو لؤلؤة لقتل عمر وقتّل نفسه عندما أحيط به (كما يقول السيوطي في تاريخ الخلفاء).

والإنسان يسأل نفسه: ماذا فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى يتآمر عليه هؤلاء الثلاثة ومن وراءهم، وهو معروف بالصرامة والعدل؟.

السؤال الثاني الذي يجول بالخاطر أيضاً: ما هي ردود الأفعال المعروفة في مثل هذه الأفعال؟!!.

وحسبنا أن نشير هنا إلى أن الجندي السيخي الذي قتل إنديرا غاندي الهندوسية تسبب في قتل أربعة آلاف من طائفته في ليلة واحدة نتيجة الغضب الهندوسي العارم في الهند!!.

لكن ما حدث في قتل عمر: أن عمر بن الخطاب قال: إذا عشت فالأمر لي وإذا مت فالقصاص، رجل برجل!!.

لكن ابنه عبيد الله بن عمر عندما بلغه الخبر وعرف بالمؤامرة خرج ثائراً بسيفه، فقتل رأس المؤامرة الهرمزان ثم قتل جفينة الضلع الثاني في المؤامرة.. وغلبه الانفعال فقتل ابنة لقاتل أبيه أبي لؤلؤة المجوسي، لكن الصحابة رضوان الله عليهم قاموا باعتقاله، بل وظهرت آراء تطالب بالقصاص لأنه حكم -ونفَّذ -القتل على المتآمرين دون محاكمتهم!!.. فلما تولى عثمان بن عفان رضي الله عنه الخلافة رأى أن تدفع الدية للمقتولين المتآمرين، ويوقف بالتالي نزيف الدم والثأر وتنتهي الفتنة.

هذا هو عدل الإسلام، وهذا هو قصاصه وحقنه للدماء، ولا سيما بعد أن فكر بعض المسلمين في قتل سبايا المجوس الموجودين بالمدينة، انتقاماً من أبي لؤلؤة الخائن المجوسي!! فكان تصرّف عثمان ذي النورين عدلاً ورحمة.. وتعبيراً عن موقف من أعظم المواقف في أصالة إنسانيات الإسلام.. دين العدل والحق والإنسانية!!.

«٨»

القدس بين إنسانية المسلمين ومجازر غير المسلمين

■ من المفروض -قانوناً وعرفاً- أن يتحقق للمدن المقدسة ما هي جديرة به من التوقير، في حالات الحرب والسلم على السواء!!.. لكن دروس التاريخ تقول لنا غير ذلك.. فلننظر ماذا فعلت حضارة أوروبا الصليبية وماذا فعلت حضارة الإسلام في القدس!!.

■ فلعدة أيام سابقة كانت جيوش الصلبيين (الباسلة) التي كانت فيها، عرفت بحملة الأمراء قد اقتحمت أسوار القدس، ودخلتها وقتلت معظم من فيها من السكان.. ولدرجة أنهم في ساحة المسجد الأقصى قتلوا أكثر من سبعين ألفاً (كما يذكر المؤرخ المسلم ابن الأثير)!!.

وذلك في يوم الجمعة ١٥ حزيران ١٠٩٩ (٤٩٢هـ).

ويصف (وليم الصوري) المجزرة قائلاً:

لقد كانت المجزرة التي ارتكبت في كل مكان من المدينة مخيفة جداً، وكان سفك الدماء رهيباً جداً لدرجة عانى فيها حتى المنتصرون من أحاسيس الرعب والاشمئزاز.

ويقول: وعلم القادة الآخرون، بعد أن كانوا قد قتلوا من واجهوا في الأجزاء المختلفة من المدينة -أن الكثير قد هربوا للالتجاء في الأروقة المقدسة (الفرسان والرجالة) فقتلوا جميع الذين كانوا قد لجؤوا إلى هناك، ولم تظهر أيُّ شفقة لأي واحد منهم، وغمر المكان كله بِدمِ الضحايا.

هذا هو المشهد كما التقطته (كاميرا) مؤرخينْ: أحدهما مسلم هو ابن الأثير، والآخر نصراني هو وليم الصوري، وقد جئنا بهما معاً حتى لا نتهم بالتحّيز أو الانتقاء!!.

■ فماذا يقول درس التاريخ فيما يتصل بمشهد تعامل المسلمين مع المدينة نفسها (القدس) عندما فتحوها.. يقول التاريخ:

إنه في يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ٥٨٢ هـ، فتح صلاح الدين القدس (١٢/١٠/١١٨٧م)، (أي بعد ثمان وثمانين سنة ميلادية) فذكر صلاح الدين للصليبيين المحاصرين ما فعله آباؤهم بالمسلمين سابقاً في القدس..

لكن (مجرد التذكير) جعلهم يهددون بالانتحار انتحاراً جماعياً...

لأنهم كانوا يعرفون جيداً سلوك أجدادهم الدموي في القدس قبل نحو تسعين سنة هجرية!!.

لكن صلاح الدين الأيوبي فاجأهم بإصدار عفو عام، وكأنه يستلهم ما فعله الرسول صلى الله عليه في فتح مكة عندما قال للمشركين: اذهبوا فأنتم الطلقاء لوجه الله تعالى.. إنه سلوك حضارة التسامح والرحمة النابعة من الأمر الإلهي لنبي الإنسانية ولأتباعه بعده: «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين».

■ وما فعله الصليبيون بالأمس - بالقدس- يفعله اليهود اليوم، بحماية صليبية دولية.. فالتاريخ يعيد نفسه، والأخلاق هي الأخلاق، ومع ذلك يتهمون المسلمين بما جبلوا عليه في الماضي.. وفي الحاضر..

وهكذا كان دأبهم.. يقتلون الملايين، ويخترعون أسلحة الدمار الشامل، ويتهمون الضحايا.. فحسبنا الله فيهم ونعم الوكيل.

المحتويات

الموضوع	الصفحة
بين يدي هذه الصفحات	٥
إنسانية الإسلام في النظرة إلى الكون	٩
الإنسان والكون بين الإيمان العلمي والإلحاد الخرافي	١١
إنسانية الإسلام في تكريم الجنس للآدمي	٣٧
١- الإسلام دين علم ورسالة تحضر	٣٩
٢- الإسلام رسالة عالمية تخاطب كل الناس	٤١
٣- المسلمون والمسؤولية الإنسانية العالمية	٤٥
٤- المصادر الإسلامية وحماية الإنسان وحرية الفكر	٤٧
٥- حقوق الإنسان بين العدل والمساواة	٥٣
٦- رسالات السماء بين الدين والجنس	٥٩
٧- إنسانيات المزج بين الدين والقانون في الحضارة الإسلامية	٦٣
٨- إنسانية العلم العلم عبادة.. والعبادة علم	٦٧
٩- إنسانية الإنسان المتساوية.. في مقابل العنصرية المستعلية	٧١
١٠- القوميات الإنسانية المفتوحة.. في الإسلام	٧٣
إنسانية الإسلام في نظرته إلى الأسرة	٧٧
١- التعاون العائلي في سبيل الآخرة والجنة	٧٩
٢- الوفاء بين الزوجين طريق السعادة في الدارين	٨٣
٣- حين يكون البيت كريماً يكون الأبناء صالحين	٨٧
٤- إنسانية المرأة وإيجابيتها في حضارتنا الإسلامية	٩١
٥- المرأة الثابتة على الإيمان تقود قبيلتها للإسلام	٩٥
٦- أهل صفَّة من النساء	٩٩
إنسانية الإسلام في السمو الأخلاقي «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»	١٠١
١- العدل في أسمى صوره	١٠٣

الموضوع	الصفحة
٢- الإخلاص وإنكار الذات	١٠٧
٣- أخلاقنا الحضارية.. فوق المصالح والأهواء	١١١
٤- تواضع القوي وإنسانيته	١١٣
٥- التسامح والزهد في الانتقام	١١٧
٦- الحرية الإنسانية بين حضارتنا وحضارتهم	١١٩
٧- دين إنساني يأمر بالترويح وحب الحياة	١٢٣
٨- دور الضيافة مظهر للطبيعة الإنسانية الإسلامية	١٢٥
٩- أصول تاريخية لموائد الرحمن في رمضان	١٢٧
١٠- الثقة في الله في وقت المحن	١٣١
١١- الصبر أمام اختبارات الله	١٣٥
١٢- الإيثار والكرم ولو بالقليل	١٣٩
١٣- الارتباط بين القول والعمل	١٤٣
١٤- الحب الروحي: من أيادي الحضارة الإسلامية	١٤٧
١٥- علماء في الدنيا وملوك في الآخرة	١٥١
١٦- تفاعل حضاري إيجابي قديم وحديث	١٥٥
إنسانية الإسلام في معاملة أهل الذمة (الأقليات)	١٥٩
١- الإسلام يحمي الأقليات	١٦١
٢- اليهود ينعمون بالتسامح في ظل الحضارة الإسلامية	١٦٣
٣- نموذج من صقلية	١٦٥
٤- احترام دور العبادة لدى غير المسلمين في حضارتنا الإسلامية	١٦٧
٥- ذميون ومواطنون	١٦٩
٦- المستأمنون والآداب الشرعية	١٧٣

الموضوع	الصفحة
إنسانية الإسلام في الحروب	١٧٧
١- حروبنا.. إنسانية للدفاع عن الدعوة	١٧٩
٢- الإنسان والرحمة والعفو في الحروب	١٨٣
٣- الوفاء بالعهد مع الأعداء	١٨٧
٤- الشعوب لا تدفع الثمن	١٩١
٥- دار العهد والأمان والحياد	١٩٣
٦- لا قتل للأطفال في الحروب	١٩٥
٧- حتى في التآمر على قتل عمر.. تعاملنا بإنسانية	١٩٧
٨- القدس بين إنسانية المسلمين ومجازر غير المسلمين	١٩٩